من مصادر السيرة النبوية ؛ كتب الأدب

بقلم الاستاذ ؛ هاني السباعي

هل تعتبر كتب الأدب من مصادر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نود أن نجيب على النقاط التالية :

أولاً: ما المقصود بكتب الأدب؟
ثانياً: نماذج من كتب الأدب..
ثالثاً: وهل تعرف كتب الأدب الإسناد كما هو معروف في كتب الأحاديث والسنن؟
رابعاً: ما هي مرتبة كتب الأدب كمصدر من مصادر السيرة النبوية؟

* * *

أولاً
المقصود بكتب الأدب

قبل أن نعرّف كتب الأدب.. نعرّف أولاً معنى علم الأدب لأن هذا العلم لم يكن معروفاً بهذا المصطلح في الجاهلية أي قبل الإسلام ولا حتى القرن الأول الهجري وكانوا يطلقون عليه علم العرب أي العلم الذي يهتم بأيام العرب وشعرهم ونثرهم ومقاماماتهم.

وفي كلام حسن للرافعي تحت عنوان (الأدب .. تاريخ الكلمة) يقول: "تقلبت هذه اللفظة في العربية على ثلاثة أدوار، تتبع ثلاث حالات من أحوال التاريخ الإجتماعي؛ فهي لم تكن معروفة في الجاهلية وصدر الإسلام إلا بما يؤخذ من معناها النفسي الذي ينطوي فيه وزن الإخلاق وتقويم الطباع والمناسبة بين أجزاء النفس في أستوائها على الجملة، وكل ما هو من هذا الباب. ولعل ذلك كان توسعاً منهم في أصل مدلول الكلمة الطبيعي، على ما هو معروف من أمرهم في اشتقاق اللغة وانتزاع بعضها من بعض؛ فإنهم يقولون: أَدَبَ القومَ يأْدِبُهم أَدَباً، إذا دعاهم إلى طعام يتخذه. والقوم أهل بادية مقفرة تأكل فيها

الشمس حتى ظلها، وتشـرب نسـيمَها وطلّهـا، فـإذا هلك فيها الـزادُ هلك حاملـه، وإذا لم يـدفع عن نفسه بأسـلحة فمِه فـالجوعُ قاتلـه؛ ولـذلك تمـدّحوا من أقـدم أزمنتهم بالقِرى وعدّوه من أعظم مفـاخرهم؛ لأنه شـريعة الطبيعة الـتي أدّبتهم هـذا الأدب، بل هو شـعرها في أخلاقهم، إذ ارتقى بعد ذلك بارتقاء الشعر حتى تخرّقوا فيـه، كما يـؤثر عن كرائمهم وأجوادهم مما استوعبته كتب المحاضـرات. ثم لما جاء الإسلام ووضعت أصول الآداب، واجتمعوا على أن هـذا الـدين أخلاق يتخلق بهـا، فشت الكلمـة، حـتى إذا نشـأت طبقة المعلمين لعهد الدولة الأمويـة، أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدّبين، وكان هذا الإطلاق توسعاً ثانيـاً في مدلول (الأدب) لأنه اكتسب معنى علمياً إذ صـار أثـراً من آثار التعليم. ثم استفاضت الكلمة وكانت مادة التعليم الأدبي قائمة بالرواية من الخـبر والنسب والشـعر واللغة ونحوهـا، فـأطلقت على كل ذلـك، ونـزلت منزلة الحقـائق العرفية؛ وهـذا هو الـدور الثـالث في تاريخها اللغـوي، وهو أصل الدلالة التاريخية" .

أقـــول: هكـــذا مر ت كلمة (الأدب) على ثلاث مراحل تاريخية:

المرحلة الأولى: مدلول الكلمة الطـبيعي المشـتق من اللغة العربية وهي أشبه بمصطلح لغوي بحت ارتقى زمنياً إلى مصطلح وراثي.

المرحلة الثانيـــة: المعـــنى العلمي لكلمة الأدب وذلك باتخاذه حرفة نظـراً لظهـور طبقة المعلمين الـذين أطلق عليهم المـؤدبين. المرحلة الثالثـة: استفاضة مـادة التعليم القائمة بالرواية والخبر والنسب والشعر والنثر واللغة وهو المعني بأصل الدلالة التاريخية لكلمة الأدب.

وقد ذكر ابن خلـدون تعريفـاً قيمـاً في حد الأدب: " هـذا العلم لا موضـوع له ينظر في إثبـات عوارضه أو نفيهـا. وإنما المقصـود منه عند أهل اللسـان ثمرته وهي الإجـادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعـون لـذلك من كلام العـرب ما عسـاه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متسـاو في الإجـادة ومســـائل من اللغة والنحو مبثوثة أثنـــاء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية مع ذكر بعض من أيـام العـرب يفهم به ما يقع في أشـعارهم منهـا. وكـذلك ذكر المهم من الأنسـاب الشـهيرة والأخبـار

العامة. والمقصود بـذلك كله أن لا يخفى على النـاظر فيه شــيء من كلام العــرب وأســاليبهم ومنــاحي بلاغتهم إذا تصــــــفحه لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه. ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قـالوا: الأدب هو حفظ أشـعار العـرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطــرف يريــدون من علــوم اللسـان أو العلــوم الشــرعية من حيث متونها فقط وهي القـرآن والحـديث. إذ لا مـدخل لغـير ذلك من العلـوم في كلام العـــــرب إلا ما ذهب إليه المتــــأخرون عند كلفهم بصـــناعة البـــديع من التورية في أشـــعارهم وترســـلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صـاحب هـذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها".

هكذا استبان لنا المقصود بعلم الأدب .

ومن ثم نستطيع أن نعـرف كتب الأدب بـالتعريف التـالي: يقصد بكتب الأدب تلكم التي تعنى بأشعار العرب ونــثرهم وأيـامهم ومـآثرهم، ويكـون غرضـها ابـراز الكلمة العربية وتفســيراتها وابــراز محاســنها.. والعناية بالطرفة الأدبية والنكتة البلاغيــة.. مع اضــفاء مــادة الســرور والمــرح في المادة المروية ورسم الصور الخيالية.. كما أن كتب الأدب تعنى بأيام العرب وثقافتهم ومستوى معيشــتهم من مأكل وملبس وعـادات الشـعوب وغــير ذلك من جــوانب حيـاة المســلمين في عصر الرســالة.. والعصــور الإســلامية المختلفة.. والشعر بصفة خاصة يعتــبر وثيقة تاريخية هامة حيث يكون مرآة للحياة الإجتماعية ويصور المعارك ويــبرز البطولات ويشيد بأمجاد العرب والمسلمين. فالشعر بحق كما قالوا قديماً: ديوان العرب..

" ويمكن القـول إنه سـجلهم النفيس الـذي حفظ تـراثهم وتــاريخهم وادابهم وأخلاقهم وإنه متحفهم النــاطق الــذي دونوا فيه أخبار أبطـالهم ووقـائع بطـولاتهم، وما تفـرت به قرائح حكمائهم من حكم بليغـة، وأمثـال بديعة وآيـات في تجـارب الحيـاة. ولـولا الشـعر العـربي؛ لما عـرفت الآداب العربية، ولما شهرت القبائل العربية وأخبارها في محافلها وتناقضــاتها، وفي تحاربها وتســالمها، ولــولاه أيضــاً لما عــرفت الجغرافيا العربيــة، ومواقع الصــحراء، ومرابعها وواحاتها وجبالها ووديانها، فإن كل ذلك مـدون في أشـعار الشعراء، مخلد فيها. ولولاه أخيراً لما أغنت خزانة العلـوم العربية بكل ما تحفل به الآن في مواضــيع البالغة والبيــان والنحو واللغة فضلاً عن مواضيع العلوم الإسلامية".

ونظـراً لأهمية دور الشـعر في مرويـات الأحـاديث النبوية نجد اهتمــام الإمــام البخــاري في صــحيحه حيث نجــده يستشهد كثيراً بالشعر بل إنه بوب باباً خاصـاً يقـول فيـه: "باب: ما يجوز من الشعر والرجز والحُداء وما يكـره منـه. وهو قوله تعـالى (والشـعراء يتبعهم الغـاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولـون ما لا يفعلـون إلا الـذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكـروا الله كثـيراً وانتصـروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبـون).. وسـاق البخـاري بسـنده عن أبي بن كعب أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن من الشعر حكمة) ".

أقول: فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وفـدت عليه بنو تميم سـنة 9 هــ بعد فتح مكة في العـام السـابق وقد عم الإسـلام بلاد العــرب وكــان بنو تميم يعتــدون بعددهم وبقوتهم ووجـاهتهم في العـرب. فلما دخلـوا على الرسـول صـلى اله عليه وسـلم قـالوا لـه: جئنا نفـاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا.. قال: قد أذنت لكم. فقام عطـارد بن حاجب فخطب مفتخراً بتميم فرد عليه من المسـلمين ثابت بن قيس فقـال: الحمد لله الـذي السـموات والأرض خلقه قضى فيهما أمــره ووسع علمــه، فلم يكن شئ قط إلا من فضله. ثم كان من قدره أن جعلنا ملوكاً فاصـطفى لنا من خير خلقه رسولاً أكرمه أباً وأحسنه رأيـاً وأصـدقه حديثاً، فـأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقـه، فكـان خـيرة الله في عباده، ثم دعانا إلى الإيمان فـآمن به المهـاجرون من ذوي رحمه أصبح الناس وجوها وأفضل النـاس أفعـالاً، وكنا أول من أجابه واســتجاب له حين دعانا رســول الله صـلى الله عليه وسـلم، فنحن أنصـار الله ووزراء رسـوله نقاتل النــاس حــتى يقولــوا لا إله إلا الله فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر بالله ورسـوله جاهـدناه في الله وكان قتله علينا يسيراً. أقول قولي هذا وأسـتغفر الله للمؤمنين والمؤمنات، وكان الله غفوراً رحيماً ..

ثم قام الزبرقان بن بـدر شـاعر بـني تميم فأنشد قصـيدة مطلعها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا　　　منا الملوك
وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ

فلما فـرغ من انشـاده قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم لحسـان بن ثـابت: قم يا حسـان، فـأجب الرجـل.. فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سُنةً للناس تُتبعُ

واستمر في يرد بشعره على أخي بني تميم الزبرقــان بن بدر رضي الله عنه.. إلى أن قال:

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أصيبوا فلا خورٌ ولا جزعُ

أكرِمْ بقومٍ رسولُ اللهِ قائدُهم إذا تفاوتت الأهواءُ والشيعُ

وفي رد رشيق لا بن رشـيق القـيرواني على من يكرهـون الشعر ويحتجون بآية سورة الشعراء يقول: "فأما احتجـاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعــالى: (والشــعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولــون ما لا يفعلون) فهو غلط، وسـوء تـأول؛ لأن المقصـودين بهـذا النص شعراء المشركين الـذين تنـاولوا رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بالهجـاء، ومسّـوه بـالأذى، فأما من هم سـواهم من المؤمـنين فغـير داخل في شئ من ذلـك، ألا تسـمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقـال (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصـروا من بعد ما ظلمــوا) يريد شــعراء النــبي صــلى الله عليه وسـلم الـذين ينتصـرون لـه، ويجيبـون المشـركين عنـه، كحسان بن ثـابت، وكعب بن مالـك، وعبد الله بن رواحـة. وقد قال فيهم النبي صـلى الله عليه وسـلم: (هـؤلاء النفر أشد على قريش من نضح الإبل) وقال لحسـان بن ثـابت: (اهجهم ـ يعـني قريشـاً ــ فوالله لهجـاؤك عليهم أشد من وقع السـهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، وألقَ أبا بكر يعلمك تلك الهنات).. فلو أن الشـعر حــرام أو مكــروه ما اتخذ النــبي صــلى الله عليه وســلم شـعراء يـثيبهم على الشـعر، ويـأمرهم بعملـه، ويسـمعه منهم. وأما قوله عليه الصلاة والسـلام: (لأن يمتلئ جَـوْفُ أحدكم قَيْحاً حتى يَرِيَهُ خـير له من أن يمتلئ شـعراً) فإنما هو من غلب الشـعرَ على قلبـه، وملك نفسه حـتى شـغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القـرآن، والشـعر وغـيره ــ مما جـرى هـذه المجـرى من شطرنج وغيره ــ سـواء. وأما غـير ذلك ممن يتخذ الشـعر

أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه وقد قال الشـعر كثـــير من الخلفـــاء الراشـــدين، والجِلّـــةُ من الصـــحابة والتابعين، والفقهاء المشهورين".

وقد بلغ من شغف علمـاء السيرة والتـاريخ بالشـعر أنهم أكثروا من ذكر الإستشهاد بأبيات لكثـير من الشـعراء وقد كـــان محمد بن اســحاق ت 151هـــ أول من تنبه لأهمية الشعر ومكانته في دراسة السيرة النبوية حيث كـان ينقل عقب كل موقعة ما قيل فيها من شـعر، نجد ذلك واضـحاً في غزوة بدر سـنة 2هــ ، وعقب غـزوة أحد 3هــ وغـزوة الخنـدق 5هــ ونجد أطرافـاً من هـذا الشـعر في فتح مكة 8هـ بالإضافة إلى شعر الوفود والقبائل الـتي جـاءت تعلن إسلامها.

ثم يأتي أبو محمد ابن هشام ت 218هـ ليهذب سـيرة ابن اسحاق ويحذف منها أشعاراً كثيرة لم يثبت سندها لديـه.. فتخـرج السـيرة بثوبها المطبـوع حاليـاً لدرجة أنها تنسب إليه فنقول: سيرة ابن هشام.. ورغم ما قام به ابن هشام من حـذف لكثـير من الشـعر إلا أنه أثبت أيضـاً كثـيراً من الشعر وخاصة عقب الغزوات والسرايا ..

كما نلاحظ أن ابن جرير الطـبري ت 310 هـــ في تاريخه قد أكـــثر من الإستشـــهاد بأبيـــات من الشـــعر قبل وبعد الإسـلام وتاريخه مفعم بشـعر المعـارك والملاحم وشـعر المراثي والهجـاء كل ذلك مبثـوث في تـاريخ الطـبري في أبواب متفرقة..

ثم تمضي عدة قرون فيخرج لنا الحافظ السهيلي ت 581 هـ كتابه الماتع (الـروضُ الأُنـف) وهو شـرح لكتـاب سـيرة ابن هشـام حيث يقـوم السـهيلي بشـرح أبيـات الشـعر وتفسير غـريب الكلمـات مع التعليق على بعض الحـوادث فكان أشبه بموسوعة ففي السـيرة النبوية بل وموسـوعة في الأدب واللغة على ضـــوء الســـيرة النبويـــة. ونظـــراً لسهولة الشعر وهيـام النـاس به وحبهم لسـيرة الرسـول صـــلى الله عليه وســلم نظم جماعة من العلمـــاء قـــديماً السيرة شـعراً مثل عبد العزيز بن أحمد المعـروف بسـعد الـديري المتـوفى 607 هــ ، وأبي الحسن فتح بن موسى القصري المتوفى 668هـ ، وابن الشهيد المتـوفى 793هــ وغيرهم.

حـــتى وقتنا المعاصر كالشـــاعر أحمد محـــرم ت 1945م الـــذي ألف في ســـيرة الرســـول وغزواته ملحمة شـــعرية كبـــيرة وقيمة بحـــق.. لكنه اعتمد على من ســـبقه من كتب الســـــيرة النبوية وخاصة ســـــيرة ابن هشـــــام في طريقة الســـرد التـــاريخي والتسلسل الزمـــني لكن هـــذه القصـــائد المطولة تحتـــاج إلى مراجعة وإلى إعمـــال منهج الجـــرح والتعديل ويختار منها ما يوافق الصحيح المعتمد من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

ثانياً
نماذج من كتب الأدب

أهم كتب الأدب نثراً وشعراً: (البيان والتبيين) و (الحيوان) للجاحظ ت 255هـ نجد أنه ذكر في كتابه البيـــان والتبـــيين أكثر من مائة حديث، بعضها صحيح وبعضها موضـــوع ورغم عناية الباحثين به أدبيـــاً ولغويـــاً إلا أنهم لم يهتمـــوا بتحقيقه حديثياً وتخريج نصوصه النبوية جرحـــاً وتعـــديلاً. وكما يقـــول د. فـــــاروق حمـــــادة : يغلب على كتب الجاحظ المـــــرح والدعابة والفرح والفكاهة، فنراه يقيم الـــدليل على صـــحة أمر. ثم يقيم الدليل على صحة نقيضه.

ويعتبر ابن قتيبة ت 276هـ رائـــداً في مجـــال الأدب واللغة فقد كان عالماً بالقرآن والسنة محدثاً كبيراً وأديباً عظيماً وقد لقب قـــديماً بخطيب أهل الســـنة وكـــان شـــديداً على المعتزلة من أمثـــال النظـــام والجاحظ والعلاف، وقد اتهم الجاحظ بأنه توسع في علـــوم الـــدنيا وقصد بكتبه التســـلية أكثر مما قصد إلى التهذيب ورفع شـــأن الـــدين.. وتعد كتبه ممن أهم كتب الأدب مثـــــل: (المعـــــارف) و (الشـــــعر والشعراء) و (أدب الكاتب) (عيون الأخبار) (تأويل مختلف الحديث)..

ونلاحظ أنه عكس الجاحظ تماماً فهو أديب جـــاد يظهر أثر القـــــرآن والحـــــديث في كتبه خاصة أنه عاصر أصـــــحاب الصـــــحاح والســـــنن واشـــــترك معهم في الأخذ عن بعض الشـــــــيوخ.. وكتبه من حيث الثقة أعلى مرتبة من كتب الجاحظ. ومن هؤلاء الكتاب الذين اعتنوا بالأدب وأخبـــاره: محمد بن يزيد المعروف بـــالمبرد ت 258هـــ وأشـــهر كتبه

الكامل في اللغة والأدب.. حيث ساق أخباراً عن النبي صلى الله عليه وسلم وخطبه وأحداديثه وكلامه.. ونراه أحياناً يروي بالسند وأحياناً بلا سند..

ونلاحظ أنه اهتم في كتابه الكامل بأخبار الخوارج وأدبهم مما حدا بالبعض أن يتهمه بأنه خارجي النزعة.. وممن هؤلاء العلماء الحافظ ابن الأنباري ت 317هـ الذي أخذ العربية عن ثعلب، وإسماعيل القاضي وآخرين. له كتاب (الوقف والإبتداء) (الأضداد) وشرح القصائد السبع الطوال. وممن كتب في الأدب وأصّل له الأديب المؤرخ أبو بكر الصولي ت 335هـ الذي تتلمذ على المبرد وثعلب، وأخذ الحديث من أبي داود السجستاني، وأشهر كتبه (أدب الكتاب) (كتاب الأوراق).. وكتابه الشهير (أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم)..

ومن نفس الطبقة أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ت 331 هـ صاحب الكتاب الشهير (الوزراء والكتاب)..

ويعتبر كتاب العقد الفريد لإمام أهل الأدب في الأندلس في المائة الرابعة ابن عبد ربه ت 328 هـ من الكتب التي حوت على فضائل جمة وعلوم كثيرة مهمة كما يصفه الحافظ ابن كثير.. والحقيقة أن عنوان الكتاب الأصلي كان (العقد) فقط ولكن أحد الناشرين أو المطالعين على الكتاب زاد كلمة (فريد).. فاشتهر الكتاب بها الإسم (العقد الفريد).. وقد جعل ابن عبد ربه كتابه خمسة وعشرين باباً وشبهه بعقد فيه خمسةٌ وعشرون حجراً كل حجرين منها متماثلان من جنس واحد يحتلان مكانين متقابلين من طرفي العقد على جانبي الواسطة.

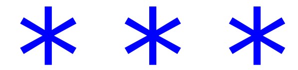
فمن أبواب العقد: اللؤلؤة في السلطان.. الفريدة في الحروب.. الزبرجدة في الأجواد.. الجمانة في الوفود..

ومصدر مادة كتاب العقد الفريد من مصادر مختلفة من كتب القرآن الكريم والأحدايث النبوية ومن كتب ابن المقفع والجاحظ والمبرد وأخذ كثيراً من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.. لكن ابن عبد ربه كان متحاملاً على بني أمية رغم أنه كان من مواليهم حيث كان ابن عبد ربه شاعر بلاط للأمير المنذر ت 275 وللأمير عبد الله ت 300 هـ وللخليفة عبد الرحمن الناصر ت 350هـ وكل هؤلاء أمويون!!..

والكتـاب فيه فوائد عن سـيرة الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وذكر الصـحابة وحيـاتهم وأقـوالهم لكن يجب أن نعمل منهج الجرح والتعـديل في المرويـات الـتي يسـوقها أحمد بن عبد ربه في عقده الفريد.

ومن هذه الكتب التي تعنى بالأدب كتاب (صـبح الأعشـى) للقلقشـندي ت 821هـ ويعتـبر كتابه صـبح الأعشى من أفضل كتب الأدب إذ أنه اسـتفاد من كل الكتب السـابقة وخصوصا كتـاب أدب الكـاتب لابن قتيبة والمثل السـائر لا بن الأثير .. وقد كان شهاب الدين أبو العباس القلقشـندي مؤلفاً مكثراً .. تكلم في كتابه المـذكور على فضل الكتابة والتـاريخ وديـوان الإنشـاء وعلى صـفات الكـاتب وآداب الكتابة وما يحتـاج إليه الكـاتب من معـارف في اللغة والـدين والجغرافية والتـاريخ والأدب..ثم تكلم عن الحيـاة السايـاسـية في مصر والشـام وعلى أسـلوب المكاتبـات وعن إدارة الدولة..

وله كتـاب قيم آخر : نهاية الأرب في معرفة قبائل العـرب.. وكتـاب قلائد الجمـان في التعريف بقائل عـرب الزمـان .. وحلية الفضل وزينة الكـرم في المفـاخرة بين السيف والقلم..



ثالثاً
وهل تعرف كتب الأدب الإسناد كما هو معروف في كتب الأحاديث والسنن؟

الاسناد نوعان:

الأول: اسناد رواية.

والثاني: اسناد كتاب.

أما اسناد الرواية وهو على طريقة أهل الحديث أن يـروي الخبر سواء بيت شعر أو قول مأثور أو خطبة لأحد البلغـاء عدل ضابط عن مثله إلى أن نصل لمصـدر الخـبر أو قائله الأصلي.. فلما كـان القـرن الخـامس الهجـري ضـعف أمر الاسناد شيئاً غير قليل ولكن بقيت فيه بقية يتماسك بها..

"ومن يومئذ صـار أمرالاسـناد مقصـوراً على تلقي الكتب العلمية وروايتها بالسـند عن مؤلفيهـا، لأن العلم كـان قد نضج وكملت فنونه، ثم كان لسان العـرب قد اختبل وكـان أمرهم قد اختلّ، فلم تعد الرواية عنهم تجدي شيئاً، وكـان سـماع الكتب وروايتها عن مؤلفيها معروفـاً من أول عهد التأليف، ولكنه لم يكن مما يتباهى به إلا منذ بدأت الرواية تضـعف في القـرن الرابـع، وحين كـثرت الكتب، فكـان الصولي الأديب المتوفى سنة 335هـ يتبـاهى عظيما بكتبه وهو مصـفوفة وجلودها مختلفة الألـوان، ويقـول: هـذه الكتب كلها سماع! وقد هُجي بـذلك لأن النـاس لم يكونـوا قد ساروا هذه السـنة بعـد. ومن ثم صـاروا يطلقـون لفظ (الصَّـــــحفي) على من يأخذ من الكتب بنفسه دون أن يتلقاها بإسناد معروف إلى مؤلفيهـا، حـتى إنهم لما عـابوا الحسن بن أحمد النحـوي (في أواخر القـرن الخـامس) وكـان يحسن كتـاب سـيبويه، قـالوا: إنما كـان في فهم الكتاب صُحفياً".

أما عن أول من أسند في الأدب:

يقول الرافعي إن أول اسناد عرف في الأدب كـان علميـاً بحتاً : "وذلك اسناد نصر بن عاصم الليثي إلى أبي الأسود الدؤلي في كتابه الـذي وضـعه للعربيـة.. ثم كـان العلمـاء يـروون المغـازي، وهـذه لابد فيها من الإسـناد وإن كـان قصيراً لقرب التابعين من عهدها الـذي حـدثت فيه ثم لما خيف على لسان العـرب من الفسـاد ومسّـت الحاجة إلى الكتابة عن العــرب لصـيانة اللغة والاسـتعانة على فهم القرآن والحديث وتجريد القياس في العربية وما إلى ذلك ـ نشأت الطبقة التي ابتدأ الإسـناد في الأدب إلى رجالهـا: كحماد الراوية، وأبي عمـرو بن العلاء، وغيرهمـا. وصـارت الرواية علمية محضـة. وبهـذا تحقق معـنى الاسـناد في الاصـطلاح، وكـان ذلك بـدء تاريخه في الأدب. ثم ظهـرت الطبقة التي أخذت عن هؤلاء، وكانوا جميعـاً إنما يطلبـون رواية الأدب للقيـام به على تفسـير ما يشـتبه من غـريب

القرآن والحـديث، وحـتى لا تجد فيهم البتة من لا رواية له في الحـديث كـثرت أو قلت، والمحـدثون يـرون أنه ليس براوٍ عنـدهم من لم يـرو من اللغـة؛ لأن موضـوع الحـديث أقـوال النـبي صـلى الله عليه وسـلم، وهو أفصح العـرب، ولـذا لا يمكن أن يقيمـوا آراءهم في غـريب الأثر ومشـتبه الحديث إلا بما يحتجون به من الشعر وكلام العرب، مروياً بسـنده أو مـأخوذاً عمن يسـنده؛ مما عسى أن يُرمَـوا به من الوضع والصـنعة، وتـابعهم الفقهـاء بعد ذلـك، فجعلـوا المهـارة في الشــريعة والحــذق بالفقه والبراعة في الفتيا مفتقـرة إلى الأصـلين الكتـاب والسـنة، وأقسـام العربيـة، حتى إن الشـافعي رحمه الله قـال إنه طلب اللغة والأدب عشرين سنة لا يريد بذلك إلا الاستعانة على الفقه".

أقـول: نلاحظ أن معظم أسـانيد الـرواة تنتهي إلى الطبقة الأولى أي إلى طبقة أبي العلاء، وحمـاد الراويـة، وخلـف، وأبي عبيد وغـــيرهم لأن علم الإســناد في الأدب لم يكن معروفاً قبل هؤلاء بل إن علم الإسناد علم إسلامي صرف لم يكن معروفاً في الجاهلية ولا حـتى في الأمم السـابقة على الإسـلام أو حـتى الأمم المعاصـرة للأمم الإسـلامية.. ومن ثم نستطيع أن نؤكد أنه لولا اهتمام العلماء بأحـاديث الرسـول صـلى الله عليه وسـلم لما خلصت اللغة العربية ولجاءتنا مشـوبة بالكـذب والأغاليـط، ولفسد بالتبعية علم الأدب وما بني عليه..

* * *

رابعا
ما هي مرتبة كتب الأدب كمصدر من مصادر السيرة النبوية؟

لما كـــان غـــرض كتب الأدب ينحصر في تفســـير الكلمة الغريبة وتوفـير مـادة السـمر والمـرح وابتـداع الخيـال مع الطرفة الأدبية والنكتة البلاغية ســـــواء المبثوثة في بيت شـعري أو خطبة بلاغية أو كلام منثـور أو حكمة مـأثورة.. بالإضافة إلى أن كتب الأدب تعـنى بالشـاذ والغـريب أكـثر من عنايتها بالأحداث والتواريخ الرتيبـة..كـان من الطـبيعي أن تكـــون كتب الأدب أوهى مصـــادر الســـيرة النبوية وأضعفها وأدناها رتبة وأقلها شأناً وخاصة في مجال تدوين السيرة النبوية وتوثيقها..ورغم هذا الوضـوح نجد في وقتنا

المعاصر أن الوضع صار معكوساً فيقوم فريق من أدعيـاء البحث والتحقيق والمنهجية العلمية بوضع كتب الأدب أول مصادر السيرة النبوية وتاريخ الإسلام..

أما القرآن وكتب الأحاديث الصحاح وغير ذلك من مصـادر السـيرة فلا يلتفتـون إليهـا!! لحاجة في أنفسـهم، نحن نعلمهـا.. بغية النيل من الإسـلام والتشـكيك في صـاحب الرسـالة نفسه صـلى الله عليه وسـلم.. بل إنهم يأخـذون هذه الأكاذيب والخرافات ويجعلون منها قواعد ومسـلمات ينطلقـون منها للطعن والتجـريح في عقيـدة المسـلمين وتشويه سيرة نبيهم صلى الله عليه وسلم مما يسهل لهم الطعن في رمـوز أهل الإسـلام من صـحابة وخلفـاء وسـلاطين وعلمـاء وقـادة.. كل ذلك يتم باسم البحث العلمي!!

* * *

صفوة القول

رغم أن كتب الأدب من أضـعف مصـادر السـيرة النبوية والتاريخ الإسـلامي.. إلا أنها في حاجة إلى تخـريج أحاديثها وإعمال منهج الجرح والتعديل في مروياتها سواء المتعلقة بالشعر أو النثر أو الحكم والأقـوال المـأثورة.. ولكن على أية حـال لقد سـدت كتب الأدب بعض الثغـرات في كتب السـيرة والتـاريخ الإسـلامي وخاصة في شـعر الفتـوح الإسـلامية من ذكر المواقع الجغرافية من قلاع وجبـال وسهول ووديان وتخليد أسماء قادة بل إن بعض أبيات من الشعر كانت تحل معضلة في ترتيب زمـني لأحد الصـحابة أو أحد القادة..

وقد يصف شـاعر معركة فيخلد ذكرها وتتناقلها الأجيـال على أحسن ما تكون الرواية كما في قصـيدة فتح عمورية لأبي تمـام ت233هـ حيث كـان مع الخليفة المعتصم في تلك المعركة سـنة 223هـ وفيها انتصر المعتصم لصـرخة المرأة المسلمة التي قـالت (وامعتصـماه) فـدخل مدينة عمورية وتابعة لدولة تركيا الآن ظـافراً ولما عـاد المعتصم إلى سامرا سنة 224هـ أنشده أبو تمام قصـيدته البديعة الرائعةالتي يرد فيها على أهل التنجيم ويـذكر فيها أشياء لم يذكرها الإخباريون والتي مطلعها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجد واللعبِ
بيضُ الصفائح لا سودُ الصحائف في متونهن جلاءُ الشك والريبِ
يا وقعة عمورية انصرفت منك المنى حُفّلاً معسولة الحلَبِ
أبقيت جد بني الإسلام في صُعُد والمشركين ودار الشرك في صببِ
خليفة الله جازى الله سعيك عن جُرثومة الدين والإسلامِ والحسبِ
فبين أيامك اللاتي نُصرتَ بها وبين أيام بدرٍ أقربُ النسبِ

هكذا يشيد أبو تمام بنصر المسلمين في عمورية ويصف المعركة وما دار فيها حتى إنه يذكر عدد قتلى جيش الكفار ويذكر مدينة (زبطرة) التي ارتكب فيها توفيل ملك الروم الفظائع ضد المسلمين.. وقيام المعتصم بالواجب الشرعي.. في قصيدة طويلة تحتاج إلى الوقوف عند كل بيت من أبياتها..

بل إن هذه الكتب الأدبية وخاصة كتب الشعر منها كان يستأنس بها أصحاب المغازي والسير في اثبات حجتهم بل حتى الفقهاء والشراح العظام كابن حجر العسقلاني في فتح الباري وفي معظم مؤلفاته كان يكثر الأخذ عن البيان والتبيين للجاحظ وينقل عن الكامل في اللغة للمبرد ويستشهد بكتب ابن دريد ويأخذ عن معجم الشعراء للمرزباني.. وغيرهم..

والله الموفق.